

منهجية استخراج السيرة النبوية الكاملة من خلال كتب التفسير وأسباب النزول

ورقة مقدمة للمؤتمر العالمي الثالث لمنظمة النصر العالمية

الدوحة - قطر

5-7 مايو/2013

كتبتها: عبد الحي يوسف

جامعة الخرطوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد.

تمهيد

فإن الإنسان لا يتهيأ له مقام بعد أن يُدرس كتاب الله جلّ وعلا أعظم من أن يدرس سيرة نبيه ﷺ، فهي خير ما أنفقت فيه الأوقات وبُذلت فيه الجهود وفُرِغت له الطاقات، لأن نبينا عليه الصلاة والسلام هو ترجمان القرآن؛ وقد ختم الله به الرسالات، وأتم به النبوات، وفتح به أعيناً عمياً وأذناً صماً وقلوباً غلفاً، فهدى من الضلالة وعلم من الجهالة وبصّر من العمى وأخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ فسيرته خير سيرة، وطاعته ومحبته والتماس هداه خير ما يوصل عبداً إلى الجنة وينجيه من النار.

ما هي السيرة النبوية؟

السيرة في اللغة: الطريقة في الشيء والسنة؛ لأنها تسير وتجري، يقال: سارت وسيرتها أنا.¹ فالسيرة على هذا التعريف اللغوي تعني ما سار عليه النبي عليه الصلاة والسلام؛ وقد جاء في القرآن ذكر السيرة بمعنى الطريقة والهيئة في قول الله جلّ وعلا: {سنعيدها سيرتها الأولى}² وتجمع السيرة على سير

يعرّف الباحثون السيرة النبوية بأنها الأحداث المتعلقة بحياة رسول الله ﷺ منذ مولده حتى انتقاله إلى ربه عز وجل.³

ولذلك فإن مباحث السيرة النبوية تشتمل على خمسة عناصر:

¹معجم مقاييس اللغة 120/3

²سورة طه/ 21

³فقه السيرة النبوية لمنير الغضبان/ 13

الأول: السيرة الذاتية: وهي ما يتعلق به ﷺ من ولادة، ونشأة، وزواج، وخدم، ومتاع.

الثاني: النبوة والرسالة: وهو ما يتعلق بالوحي، والدعوة، ومواقف الناس منها.

الثالث: الغزوات والسرايا.

الرابع: الشمائل: وهي الآداب والأخلاق.

الخامس: الخصائص: وهي ما امتاز به ﷺ عن بقية الخلق.

وكل هذه العناصر وردت مجتمعة في القرآن الكريم، ومفصلة في كتب السير والمغازي.

وقد عرّفها بعضهم بقوله: هي كل خبر متعلق برسول الله ﷺ، مرتبط بزمن أو حادثة،

أو دال على عادة له مطلقة أو مقيدة، أو متعلق بأحوال زمنه المفيدة في بيان أحواله

ﷺ⁴

أهمية دراسة السيرة النبوية الشريفة

دراسة السيرة تزيد المؤمن يقيناً بأن محمداً ﷺ رسول الله حقاً؛ يقول الإمام أبو محمد بن

حزم رحمه الله تعالى: إن سيرة محمد ﷺ لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورةً، وتشهد له

بأنه رسول الله ﷺ حقاً، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته ﷺ لكفى. ا.هـ⁵

ويجد العلماء فيها ما يعينهم على فهم كتاب الله تعالى؛ لأنها هي المفسرة للقرآن الكريم

في الجانب العملي، ففيها أسباب النزول، وتفسير لكثير من الآيات وبيان معانيها؛

فالناظر في السيرة يستعين بها على فهم آيات القرآن، والاستنباط منها، ومعايشة

أحداثها، فيستخرجون أحكامها الشرعية، وأصول السياسة الشرعية، ويحصلون منها

على المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة، وبها يدركون الناسخ والمنسوخ

وغيرها من العلوم، وبذلك يتذوقون روح الإسلام ومقاصده السامية، ويجد فيها الزهاد

معاني الزهد وحقيقته ومقصده، ويستقي منها التجار مقاصد التجارة وأنظمتها

⁴تصرفات النبي ﷺ - بن عمر الخصاصي - بحث مقدم للمؤتمر العالمي الأول للباحثين في السيرة النبوية - جامعة القرويين - فاس - المغرب

⁵الفصل في الملل والأهواء والنحل 90/2

وطرقها، ويتعلم منها المبتلون أسمى درجات الصبر والثبات، فتقوى عزائمهم على السير في طريق دعوة الإسلام وتعظم ثقتهم بالله عز وجل، ويوقنوا أن العاقبة للمتقين⁶

ومن هنا كان اهتمام السلف رحمهم الله بدراسة السيرة الشريفة وتتعلم منها الأمة الآداب الرفيعة، والأخلاق الحميدة، والعقائد السليمة، والعبادة الصحيحة، وسمو الأخلاق، وطهارة القلب، وحب الجهاد في سبيل الله، وطلب الشهادة في سبيله؛ ولهذا قال علي بن الحسن: «كنا نُعلِّمُ مغازي النبي ﷺ كما نُعلِّمُ السورة من القرآن»⁷ سمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت عبي الزهري يقول: «في علم المغازي علم الآخرة والدنيا»⁸.

وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص: «كان أبي يعلمنا مغازير رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدها علينا ويقول هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها»⁹

من أعظم مصادر السيرة النبوية القرآن الكريم

يقول الشيخ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى: وهو مصدر أساسي نستمد منه ملامح السيرة النبوية، فقد تعرض القرآن الكريم لنشأته {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى}¹⁰ كما تعرض لأخلاقه الكريمة العالية {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}¹¹. وقد تحدث القرآن عما لقيه عليه الصلاة والسلام من أذى وعننت في سبيل دعوته، كما ذكر ما كان المشركون ينعتونه به من السحر والجنون صدا عن دين الله عز وجل، وقد تعرض القرآن لهجرة الرسول كما تعرض لأهم المعارك الحربية التي خاضها بعد هجرته، فتحدث عن معركة بدر، وأحد، والأحزاب، وصلاح الحديدية، وفتح مكة، وغزوة حنين، وتحدث عن بعض معجزاته، كمعجزة الإسراء والمعراج.

وبالجملة فقد تحدث عن كثير من وقائع سيرة الرسول ﷺ، ولما كان الكتاب الكريم أوثق كتاب على وجه الأرض، وكان من الثبوت المتواتر بما لا يفكر إنسان عاقل في

⁶مدخل لدراسة السيرة/ د. يحيى اليحيى ص 14

⁷رواه الخطيب وابن عساکر

⁸رواه الخطيب وابن عساکر

⁹شرح المواهب 473/1

¹⁰الضحى 5-6

¹¹القلم 4

التشكيك بنصوصه وثبوتها التاريخي، فإن ما تعرض له من وقائع السيرة يعتبر أصح مصدر للسيرة على الإطلاق.

ولكن من الملاحظ أن القرآن لم يتعرض لتفاصيل الوقائع النبوية، وإنما تعرض لها إجمالاً، فهو حين يتحدث عن معركة لا يتحدث عن أسبابها، ولا عن عدد المسلمين والمشركين فيها، ولا عن عدد القتلى والأسرى من المشركين، وإنما يتحدث عن دروس المعركة وما فيها من عبر وعظات، وهذا شأن القرآن في كل ما أورده من قصص عن الأنبياء السابقين والأمم الماضية، ولذلك فنحن لا نستطيع أن نكتفي بنصوص القرآن المتعلقة بالسيرة النبوية لنخرج منها بصورة متكاملة عن حياة الرسول ﷺ.¹²

والسيرة تستقى من مصادر أخرى ككتب السنة والحديث وكتب السيرة والتاريخ، لكن تظهر أهمية ما يتميز به القرآن الكريم عن بقية المصادر في:

1. أنه حقُّ كله: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}¹³، فلا مجال للشك في معلوماته، أو احتمال المبالغة في أحداثه، وبالتالي فإن جميع المصادر الأخرى يجب أن تحكّم على ضوءه.

2. أنه لا يخاطب جنساً معيناً، أو قبيلة أو جيلاً واحداً، بل هو للناس كافة {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ}¹⁴ لذا نجده يربط سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بسير الأنبياء السابقين عليهم السلام، ويوضّح الرسالة الواحدة الخالدة المشتركة بينهم.

3. أنه لا يهتمّ بالعرض التاريخي لغرض التوثيق أو التسلية فحسب، وإنما يورد القصص لغرضين أساسيين:

الأول: تثبيت رسول الله ﷺ، وتسليته بما حدث لإخوانه من قبل: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ}¹⁵

¹²السيرة النبوية دروس وعبر/ 26

¹³سورة فصلت/ 41-42

¹⁴سورة ص/ 87-88

¹⁵سورة هود/ 120

الثاني: اتعاط المؤمنين بما فيها، وأخذ العبرة منها، لتزيد ارتباطهم بالله سبحانه، وتُعدّهم للإيمان الحقّ، وتنبيههم لما قد يحدث لهم بما فيه شبهة بمن قبلهم، والأيام دول، والتاريخ يعيد نفسه {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ¹⁶}

اعتبار القرآن مصدراً أول في تلقي السيرة وفهمها

إن لدراسة السيرة من خلال كتاب الله ميزات عدة منها:

- أن مدارسته عبادة عظيمة.

- اشتمل القرآن على إشارات تفصيلية لا توجد في مصدر آخر، كما في أحداث زواج زينب - ﷺ

- دقة وصفه للأحداث والشخص، حتى يصور نبضات القلب، وتقاسيم الوجه، وخلجات الفؤاد، وهذه خصيصة تنقل القارئ إلى جو الحدث ليعيش فيه.

- تركيزه على خصائص سيرة النبي ﷺ: مثل كونه بشراً، وأن رسالته عامة، وأنه خاتم النبيين. ومنها ربطه بين قصة الحدث وسيره وبين العقيدة والإيمان والقضاء والقدر.

- بيانه حكمة الحدث ونتائجه وحكمة الله في تقديره، وهو الدرس التربوي المطلوب.

وبدراسة السيرة من القرآن يتحول الحدث من قصة في زمان ومكان معينين إلى درس كبير متكامل يتعدى ظروفهما ... يُتلى إلى قيام الساعة.

إن من يعيش السيرة من خلال القرآن - وصحيح السنة - لا تعود السيرة في حسه مجرد

أحداث ووقائع، وإنما تصير شيئاً تتنامى معه مشاعره الإيمانية تجاه الجماعة المؤمنة

ووعيه الإيماني بالسنن الربانية . ومع أهمية هذا النوع من الدراسة فإنه لم يلق بعدُ

اهتماماً يتناسب معه¹⁷

وقد حذر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: من خطورة جعل السيرة مجرد أحداث

ووقائع وتقديمها للناس على أنها حكايات وقصص؛ فقال: قد تظن أنك درست حياة

محمد ﷺ إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة، وهذا خطأ بالغ. إنك لن تفقه السيرة

¹⁶سورة يوسف/ 111

¹⁷أصول وضوابط في دراسة السيرة النبوية الشريفة/ 2

حقًا إلا إذا درست القرآن الكريم والسنة المطهرة، وبقدر ما تنال من ذلك، تكون صلتك بنبي الإسلام¹⁸

ولدراسة السيرة من خلال القرآن الكريم لا بد من الرجوع إلى كتب التفسير وأسباب النزول التي تتعرض للوقائع والأحداث، وكذلك كتب الناسخ والمنسوخ

كيف يمكن جمع المادة العلمية المتعلقة بالسيرة من خلال

كتب التفسير وأسباب النزول؟

من أعظم أنواع التفسير ما عُني بالمأثور، أعني الروايات الثابتة عن عاصروا التنزيل وشهدوا أنوار الوحي، وهم الصحابة رضي الله عنهم؛ فلا أحد أعلم بكتاب الله بعد رسول الله ﷺ منهم؛ حتى قال قائلهم: {والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه} 19 وهذا القائل نفسه رضي الله عنه هو الذي قال فيه الأشعري أبو موسى ﷺ: {قدمت أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حيناً، وما نحسب ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت النبي ﷺ، لكثرة دخولهم وخروجهم عليه} 20 وهو الذي قال له النبي ﷺ: {يا عبد الله، إذ لك عليّ أن ترفع الحجاب، وتسمع سوادىحتى أنهاك} 21 فهذا وأمثاله رضوان الله عليهم ينقلون سيرة النبي ﷺ ويربطونها بما نزل عليه من القرآن؛ ومن هنا كانت كتب التفسير وأسباب النزول من أهم مصادر السيرة النبوية الكاملة.

وجمع المادة العلمية المتعلقة بالأحداث التي جرت له ﷺ ينبغي إحصاؤها مرتبة بحسب تاريخ وقوعها من خلال جرد كتب التفسير وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ؛ لأن هذه الأحداث المنثورة في كتب التفسير تحتاج إلى خطوات ثلاث:

¹⁸فقه السيرة للغزالي/ 476

¹⁹أخرجه البخاري في فضائل القرآن (باب القراء من أصحاب النبي ﷺ)

²⁰أخرجه البخاري والنسائي

²¹أخرجه مسلم في السلام (باب جواز جعل الإنان رفع حجاب)

أولها: الإحصاء وذلك بتتبعها في المظان الموثوقة ككتاب (جامع البيان) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، وكتاب (تفسير القرآن العظيم) للحافظ أبي الفداء بن كثير (أسباب النزول) لأبي الحسن الواحدي النيسابوري، (ولباب النقول في أسباب النزول) للجلال السيوطي

ثانيها: الترتيب التاريخيبتتبع بما وقع في السنة ثم الشهر ثم الأسبوع ثم اليوم، ثم بما وقع في اليوم نفسه من طلوع فجره إلى غروب شمس، وذلك بالاستعانة بكتب الناسخ والمنسوخ، كالكتاب المنسوب إلى التابعي الجليل محمد بن شهاب الزهري، وكذلك التابعي الجليل قتادة بن دعامة السدوسي (الناسخ والمنسوخ) وكتاب أبي عبيد القاسم بن سلام (الناسخ والمنسوخ) وكتاب (قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ من القرآن) للشيخ مرعي بن يوسف الكرمي، وكتاب (الناسخ والمنسوخ) لهبة الله بن سلامة المقري، وكتاب أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس في الفن نفسه

ثالثها: سد الثغرات الموجودة، وذلك بتتبع ما كان ثابتاً من أحوال النبي ﷺ اليومية من خلال كتب التفسير وأسباب النزول مع الاستعانة بكتب الحديث والسنة؛ ككونه صلى الله عليه وسلم يفتح يومه بعد أن يقوم من فراشه بقراءة الآيات العشر الأخيرة من سورة آل عمران²²، ثم صلاة الليل على الكيفيات المتعددة الواردة في صحيح السنة²³، ثم خروجه إلى صلاة الصبح مع جماعة المسلمين، وبقاؤه في المسجد إلى أن تطلع الشمس، مع سؤاله أصحابه {هل رأى أحد منكم رؤيا البارحة؟}²⁴ وكونه يقص على أصحابه رضي الله عنهم ما رآه هو ﷺ، ثم رجوعه إلى بيته وسؤاله أهله {هل من طعام؟}²⁵ فإن وجد طعاماً أكل وإلا قال: {إفاني اليوم صائم} وما كان من محافظته على صلاة الضحى²⁶ في أغلب أيامه ثم تجزأته وقته ثلاثة أجزاء؛ قال الحسين رضي الله عنه:

²²بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الأبصار} ثم قام فتوضأ واستن. فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس بالصبح.

²³وقد عني ببيانها الإمام أبو عبد الله بن القيم في زاد المعاد 311/1

²⁴رواه البخاري من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه في كتاب بدء الوحي

²⁵رواه مسلم من حديث جويرية رضي الله عنها في باب إباحة الهدية للنبي ولبنى هاشم

²⁶26 روى مسلم في صحيحه عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصلي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء الله

سألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ فقال {كان دخوله لنفسه مأذوناً له في ذلك، فكان إذا أوى إلى منزله جزءاً دخوله ثلاثة أجزاء؛ جزءاً لله وجزئاً لأهله وجزءاً لنفسه، ثم جزءاً جزءاً بينه وبين الناس فيرد ذلك على العامة بالخاصة، ولا يدخر عنهم شيئاً، فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمته على قدر فضلهم في الدين منهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج فيتشغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مسألتهم عنهم وأخبارهم بالذي ينبغي لهم ويقول ليلبغ الشاهد منكم الغائب وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغى حاجته فإنه من أبلغ سلطاننا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة لا يذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره قال في حديث سفيان بن وكيع: يدخلون رواداً ولا يتفرقون إلا عن ذواق ويخرجون أدلة يعنى فقهاء قلت فأخبرني عن مخرجه كيف كان يصنع فيه قال كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا مما يعنيه موؤلفهم ولا يفرقهم بكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد بشره وخلقه ويتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس ويحسن الحسن ويصوبه ويقبح القبيح ويوهنه معتدل الأمر غير مختلف لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا لكل حال عنده عتاد لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره الذين يلونه من الناس خيارهم وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة وموازرة فسألته عن مجلسه عما كان يصنع فيه فقال كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيظانها وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك ويعطى كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جلسائه أن أحداً أكرم عليه منه من جالس أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه من سألته حاجة لم يردده إلا بها أو بميسور من القول قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق متقاربين متفاضلين فيه بالتقوى وفي الرواية الأخرى صاروا عنده في الحق سواء مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤن فيه الحرم، ولا تنشى فلتاته وهذه الكلمة من غير الروايتين يتعاطفون بالتقوى متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون الصغير ويرفدون ذا الحاجة ويرحمون الغريب فسألته عن سيرته ﷺ في جلسائه فقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح

يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدا، ولا يعيره ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير وإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث من تكلم عنده انصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أولهم يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ويقول إذا رأيتم صاحب الحاجة يظلمها فأرقدوه ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوزه فيقطعه بانتهاء أو قيام، هنا انتهى حديث سفيان بن وكيع، وزاد الآخر قلت كيف كان سكوته ﷺ؟ قال: كان سكوته على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكير 27

نماذج عمل

يمكن تطبيق ذلك بسهولة ويسر - من خلال تتبع كتب التفسير وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ - على بعض المغازي التي ورد ذكرها في القرآن كغزوة بدر التي ورد ذكرها في سورة الأنفال، وغزوة أحد المذكورة في نحو من خمسين آية من سورة آل عمران، وغزوة بني قينقاع في سورة المائدة، وغزوة تبوك في آيات طوال من سورة التوبة، وحادثة الإفك في سورة النور، وغزوة الأحزاب المذكورة في أغلب آيات السورة التي سميت باسمها، وكذلك غزوة بني النضير من سورة الحشر، وصلح الحديبية في سورة الفتح.

²⁷ الشفا بتعريف حقوق المصطفى 161/1